بين باشوات 1919 وعساكر 1952 في مصر

الجمعة 25 يوليو 2025 02:00 م

أحمد طه
كاتب وباحث مصري

يتجـدّد النظر إلى المشاهـد المتتابعـة، الـتي وقعت في أعقـاب انقلاب 23 يوليـو (1952)، والـتي مـازالت آثارهـا باقيـةً على وجـه المشـهد السياسـي المصـري، رغم مرور أكثر من سبعة عقود، ففي ذلك اليوم وقع انقلاب عسكري كلاسيكي، وقد حمل لقب "حركة الجيش"، ثمّ تغيّر إلى "الحركة المباركة"، ثمّ حمل لاحقاً من دون أيّ مبرّر منطقي لقب "ثورة 23 يوليو."

بعـد بضعـة أيّام، فوجئت مجموعـة من العساكر صـغار السنّ محـدودي الخبرة بأن بلـداً بحجم مصـر وثقلها، قـد صار بين أيديهم من دون منازع، بعد الاسـتجابة الفوريّة من الملك فاروق لمطلبهم بالتنازل عن العرش ومغادرة البلاد، وعلى أثر ذلك شـرعوا في عمليّة تجريف واسـعة بالغة الخشونة لكلّ البُنى السياسيّة القديمة، من أجل الانفراد الكامل بالسلطة.

اللافت هو حالة العداء التي سيطرت على أصحاب الانقلاب تجاه حزب الوفد تحديداً، الذي حمل راية النضال الوطني ضدّ القصر والاحتلال أكثر مـن 30 عاماً، تمكّن خلالها من منـاجزة خصمَيْن لـدودَيْن بمهـارة وجسـارة تنـتزع الإعجاب والتقـدير، وتحقيـق مكـاسب كـبيرة للحركـة الـوطنيّة المصـريّة، وفق الإمكانات المتاحة التي سـمح بها السـياق التاريخي، من دون سـندٍ سوى جماهيريّته الجارفة بعيداً عن هيمنة أجهزة الدولة، والأعجب انقلابهم على الديمقراطيّة التي حلّت في المرتبة الأخيرة في المبادئ الستّة وتفيـد شـهادات تاريخيّة عديدة بأن أطرافاً بعينها جمعها عـداؤها الشديـد، وكراهيتها العميقـة لحزب الوفـد، رأت أنها لحظـة مثاليّة للتخلّص من زعامته بإقصائه عن المشـهد (جماعة الإخوان المسـلمين - بعض السياسـيّين والقـانونيّين مـن أحزاب الأقليّ ة)، وقـد أغرت تلـك الأطراف قـادة الانقلاب بالسـير في طريـق الاسـتبداد والديكتاتوريّة، وقصّة العلاقة بين عساكر 1952 وجماعة الإخوان المسلمين قصّة تطول

ثمّة مشـهد جدير بالنظر، وهو "محكمة الثورة" التي كانت في نهاية عام 1953، وقـد تحدّث البرلماني الوفدي، إبراهيم طلعت، في مُذكّراته "أيّام الوفـد الأخيرة" عن خلفيّة انعقـاد تلـك المحكمـة، عنـدما أشـار إلى إقـدام الزعيم الـوطني العظيم مصـطفى النحّاس باشـا على خطـوة مباغتـة بعـد قيام النظام الجديـد بإلغاء الدسـتور والأحزاب السياسـيّة، بأداء صلاة الجمعة الأولى من سبتمبر 1953 في مسجد "المُرسي أبو العبّاس" بالإسكندريّة، وما أن علم النّاس بوجود النحّاس، حتى تحوّل الأمر إلى مظاهرة عارمة ضدّ الإجراءات القمعيّة للنظام الجديد، فما كان منّا سُمي "مجلس قيـادة الثـورة" إلا أن اجتمع على عجلٍ، وقرّر اعتقـال النحّاس وقرينته بتحديـد إقامتهما في منزلهما، ثمّ أقـام المجلس مؤتمراً شعبيّاً في ميـدان عابـدين بالقاهرة في 16 سبتمبر 1953 خطب فيه محمـد نجيب، وجمـال عبـد الناصـر، وصـلاح سالم، وهاجموا جميعاً بضراوة "الوفـد" والنحّاس، وفي اليوم نفسه قرّر المجلس تشـكيل ما سُمي "محكمـة الثورة" برئاسـة عبـد اللطيف البغـدادي، وعضويّة أنور السادات، وحسن إبراهيم، والعجيب أنها كانت موجّهـة بالأساس ضـدّ "الوفد"، وليس ضدّ أحزاب الأقليّة التي تحالفت مع القصر، فقد تعاملت المحكمـة مع رجال الوفـد بشـراسة بالغة وفي المقابل، تعاملت برقّة متناهيـة مع رجال الأحزاب الأخرى، بيْد أن تلك المحكمة لم تجرؤ على محاكمة النحّاس، ولكنّها حاكمت المُقرّبين منه مثل محمود سليمان غنّام، وإبراهيم فرج، وفؤاد سراج الدين، وزينب الوكيل حرم النحّاس.

كان العنوان الرئيسي لتلك المحكمـة أن الديكتاتوريّة المُنتصـرة كانت تُحاكم الديمقراطيّة المقهورة، وهنا كتب الراحل صـلاح عيسـى واصـفاً ذلك المشـهد: "بعد سنوات من البحث، أدركت أن الأمر صراع بين آباء وأبناء، وأن ثوّار يوليو 1952 كانوا يتعاملون مع ثوّار مارس 1919 بمنطق المنافسـة، ويسـعون لوراثـة جماهيريّة الوفـد بل يخـافون منهـا، لـذلك وجهّوا سـهامهم الدعائيّة ومحـاكمهم الاسـتثنائيّة ضـدّ قيادته، أمّا الآخرون فلم تكن لهم جماهيريّة يُخشى منها أو يُطمَع في وراثتها". وكتب عيسـى في موضع آخر: "الصـراع في محاكمـة فؤاد سـراج الدين أمـام محكمـة الثـورة، صـراعٌ تميّز بدرجـة عاليـة من اللاأخلاقيّة أُهينَ بهـا التاريـخ، وزُوّرَت بعض صـفحاته، واسـتُخدِمَت أكـثر أسـاليب الصـراع السياسي دناءة وأقلّها احتراماً."

في السـياق نفسه، ثمّة مشـهد آخر جدير بالنظر، كان بين "الصاغ" أنور السادات وفؤاد سراج الدين باشا، ففي 16 مايو 1981 ألقى السادات عنـدما كان رئيساً للجمهوريّة خطاباً بجامعة الإسـكندريّة، في ذكرى ما سُمي "ثورة 15 مـايو"، شنّ خلاله هجوماً حادّاً على الحقبـة الليبراليّة كلّها، وخصّ باشوات الوفد بالنصيب الأوفر من هجومه، إلى درجة أنه هاجم بصورة ضمنيّة النحّاس باشا عندما عرّض بـ"أصحاب المقام الرفيع"، وذلك اللقب تحديـداً حمله أربعـة أشـخاص فقط في تاريخ مصـر الحديث في مقدمتهم النحّاس، والمفارقة الطريفة أن السادات عضو "الحرس الحديـدي" الـذي تورّط في محاولتيْن لاغتيال النحّاس في الأربعينيّات، وقـد اعترف السادات بهـذا في كتابه "البحث عن الـذّات"، وقف ذات يومٍ

ليهاجم زعيماً وطنيّاً بحجم النحّاس ويسخر منه ومن حملة الألقاب الرسميّة، وكأنّها سُبّة تشين أصحابها. وبطبيعة الحال، هاجم السادات في خطابه فؤاد سراج الدين وقال بالحرف: "واحد يقولّك أنا باشا ابن باشا... إيه ده... الإنجليز كانوا بيدّوكم بالصُرَم... إيه ده... إنتوا والملك بتاعكم كمان اللّي إدّاكم الباشويّة كنتو بتاخدوا بالصُرَم"، فما كان من فؤاد سراج الدين إلا أن أرسل خطاباً إلى رئاسة الجمهوريّة كان تحت عنوان: "سيادة الرئيس... نحن لسنا من الرجال الذين يُضرَبون بالصُرَم" قال فيه: "إنّنا سيادة الرئيس لم نكن من الرجال الذين يُضرَبون بالصُرَم.. ومن يحاربون الإنجليز في معركة القناة في عام 1951، ويطلقون الرصاص لا يمكن أن يُضربوا بالصُرَم.. ومن يمنعون السفن الإنجليزيّة بالقوّة من اجتياز خليج العقبة، حفاظاً على سيادة مصر لا يصدّق أنهم يُضرَبون بالصُرَم... ومن يلغون معاهدة 1936 متحدّين الإنجليز، ولهم عشرات الآلاف من الجنود في قاعدة القناة لا يمكن أن يُقال عنهم إنهم كانوا يُضرَبون بالصُرَم."

ما قاله السادات تجاه الباشوات الليبراليّين هو الأكثر فجاجة، لكنّه يمثّل تعبيراً دقيقاً عن السرديّة التي أقام عليها عساكر 23 يوليو 1952 شرعيّتهم، وقد كانوا جميعاً من خلفيّات اجتماعيّة شديدة التواضع، فوجدوا أنفسهم، بين عشيّة وضحاها، وقد دانت لهم السيطرة على طبقة الباشوات، تلك الطبقة التي احتكرت صدارة المشهديْن السياسي والاجتماعي عن جدارة في مصر لبضعة عقود، وقد أهالت تلك السرديّة التي دشّنتها الآلة الإعلاميّة اليوليويّة، التراب على الحقبة الليبراليّة (1922 – 1952) وصوّرتها أنها كانت سواداً حالكاً لا بياض فيه، وأن الباشوات الليبراليّين كانوا حِفنة من الخَونة والظَلمة ومصّاصي الدماء، حتى أشرقت شمس 23 يوليو 1952 فخرجت مصر من الظلمات إلى النور.

بكلّ أسف، انطلت تلك الأكاذيب على أجيالٍ عديدةٍ، ودفعت مصر ثمناً باهظاً بعد الإجهاز على الليبراليّة الوطنيّة. ولم تنل الحقبة الليبراليّة حقّها من الدراسة الهادئة بعيداً عن نزعات الانتقام والتشويه. وكما قال صلاح عيسى :"إذا كنّا مُنصفين حقيقة لوجب أن نُقدّر للوفد، أنه اختار أن يموت ميتةً شريفةً، وأن يخرج من التاريخ كما دخله وفيّاً للوطنيّة كما يستطيعها، ولليبراليّة كما سمحت بها بنيته الطبقيّة."